همزاتُ الشياطِين

ـ يا بني ما سأقوله لك الآن شيءٌ خطير لم أطلعه إلا على قريبٍ من قلبي... لا رقيبٍ على لقبي... أمين على سري لا مهين على فعلي... ما سأقوله لك يا بُني هو عاقبة أمرك وأمري... هو ناظرةُ بعثك وبعثي... فأعرني مسمعك واطرح مطمعك... كي تضمن مطعمك...

ـ نعم يا سيدي كلي آذان صاغية.. ولكن لي رجاء... لن يسبب لك أية عناء حدثني لغةً أفهمها... وقل لي فكرة لا أتوهمها وكن بعيد البعد عن السجع.. لأشاطرك بعض الوجع... فإنك ستقول شيئاً خطيراً... وأنا ما زلت أراني صغيراً... وأراك على ذلك قديراً.. قل إذاً.. ما بدا لك سريعاً.. قبل أن يُهيئ لنا الله سميعاً.. إنه كان بنا بصيراً... وأعدَّ لنا زمهريراً... كانت للمجرمين سعيراً... وساءت لهم ولنا سعيراً... أبتِ!!... يا أبي... لماذا لا ترد عليَّ؟!! أبت... سيدي...

ومرت لحظات قبل أن يرد السيد قائلاً:

ـ غبي!! لقد نبهتُ عليك مرات ومرات... ألاَّ تذكر لفظ الجلال فهو لي كالأغلال... فأنا ممن لا يطمئن قلبُهم بذكره... ولا ممن ينشغل عقلهم بفكره... أنا إبليس من الجن والناس... من أجل ذلك سميت: الخناس...

ـ عفواً يا سيدي... لقد نسيت ما عنه نهيت... وانتهيت إن أبيت فهل لك أن تدخل في الموضوع... قبل أن يحل علينا الجوع... ؟!

اعتدل إبليس في جلسته باهتمام وقال:

ـ اسمع يا بُني: هدفنا الثقلان... الناس والجان... نخرجهما من الجنان... ونوسوس لهما في كل زمان... ونغويهما ليقربا الشجرة... ليتجرعا فاكهتها المُرة... فإن ذاقاها مرة... بات من السهل أن يقرباها مرةً بعد مرة...

ـ ولكن يا سيدي... ما هي الشجرة؟!

ـ الشجرة هي المعصية... الاقتراب منها هو الحوم حول الحما... أما فاكهتها: فأكلها هو المعصية... وتذوقها هو الندم... أما...

ـ وكيف يا سيدي...

ـ اخرس، يا ملعون... لا تقاطع من لُعن إلى يوم

الدين... فأنا أريد أن أعلمك وبعدها لن أكلمك... اسمع يا بُني: كلاهما يقرب الشَجرة... وكلاهما يأكل الفاكهة...

ـ وبالتالي يتذوقا الندم والحسرة... وهنا يفترقا إلى فريقين... وهنا يجب عليك أن تراقبهما بالعين... فتذوق الندم ليس هدفنا... وقد قلت لك في البداية ما الهدف... فأعد عليّ الهدف... حتى لا أصاب بالقرف...

يردد الشيطان الصغير ما قاله سيده بنفس أسلوبه المخيف قائلاً:

ـ هدفنا الثقلان... الناس والجان... نخرجهما من الجنان... فنوسوس لهما في كل زمان... نغويهما ليقربا الشجرة...

ـ نعم أحسنت... إذاً فليس هدفنا هو جعلهما يحسان بالندم... فالندم في حد ذاته يتقربان به إلى من إذا ذكر أخنس... يتساءل الشيطان الصغير في دهشة:

ـ إذاً لماذا نجعلهما يتذوقا الفاكهة... أي لماذا نجعلهما يتجرعا كأس الندم.. ؟

ـ استغلالنا لشعورهما بالندم هو أول خطوة كي نخرجهما من جنات عدن... ونفعل ذلك بأن نجعلهما ييأسا ويقنطا من كثرة الخطايا ثم نتركهما كالعرايا..

الشيطان الصغير في انبهار: . .

ـ جنات عدن؟!. . . وهل سندخل نحن جنات عدن يا أبي. ؟!

كشر إبليسُ بوجهه القبيح في شراسة ولطم الشيطان الصغير بعنف وقال له بقسوة لم تخْفِ دمعة ندم كادت تسقط من عينيه القبيحتين:

ـ لا تكثر من الأسئلة أيها الملعون. . . واسمع مني ما يقال. . . وإلا لعنتك في الحال. . .

قال له الشيطان الصغير وهو يتفحص عينيه وسأله بعناد:

ـ ولكنني أرى في عينيك الندم الذي كنت تتحدث عنه. . . فلماذا إذاً نحن من جناتِ عدن محرمون؟!. . .

رد عليه إبليس بشرود:

ـ لأنني عصيت ما أمرت. . . وإحساس بالندم ما شعرت. . . فكيف أسجد لمن خُلق طيناً؟. . . وأسلم أمره لخالقه واتخذه ديناً. . . ؟!. . . فإن سجدتُ لكنت مهيناً. . . وعندما امتنعت ما وجدت معيناً. . . وأصبح رفضي للسجود مبيناً. . . وكوفئ آدم في الجنة نعيماً. . .

ـ ولكن ألم يعص آدم ربه أيضاً؟

ـ بلى... ولكنه تلقى من ربه كلمات... أولها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وآخرها: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]... فتاب عليه.. إنه أرحم الراحمين...

ـ ولِمَ لَمْ تتلق أنت أيضاً كلمات؟!

ـ إنه مُطلعٌ على السرائر... فوجد آدم من الندم حائر.. ووجدني أنا بالتكبُّر ثائر.

ـ لكنك الآن نادم.. ألا يشفع ذلك لك...؟

ـ ندمي بسبب لعني.. وحسرتي بسبب غربتي... وليس بسبب خطئي أو بسبب عمدي.. قال له الشيطان الصغير في تردد:

ـ عندي فكرة لماذا لا تنفذها؟.. لماذا لا تذهب إلى قبر آدم وتسجد له الآن؟

انتفض إبليس في عنف.. وضرب الصغير بقوة وأخرج خواراً كالخنزير.. وشاطت أذنه كالحمار.. واحمر وجهه كاللهب وصرخ وقد أخذته العزةُ بالكفر..

ـ لقد أبيت أن أسجد له وهو حي فكيف أسجد له وهو ميت؟

قال الصغير وهو يتأوه ويتبرم بصوت خفيض لم يسمعه إبليس:

ـ حقاً لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه...

قاطع إبليسُ أفكاره وهو يقول في غضب: لقد جمعتك اليوم لأعلمك الوسوسة لا لأجيبك عن الأسئلة.. فاسمع ما أقول قبل أن أزول:

ـ قلت لك: إنهما بمجرد أن يشعرا بالندم ينقسمان إلى قسمين: قسم يعود إلى إيمانه مرة أخرى وقد يعود أقوى مما كان، وهذا ما لا نريد، وقسم آخر ييأس من الإيمان وهذا ما نريد.. أما القسم الأول فليس لنا عليه سلطان.. وأما القسم الثاني فسلطاننا عليه أن ندعوه فيستجيب لنا.. وطريقة دعوتنا لهذا القسم كالآتي:

في عقيدة التوحيد ـ وهي فطرتهم ـ لن ندعوهما إلى الكفر مباشرة.. ولكن خطوة خطوة حتى نتمكنهم بالسطوة.. نبدأ من الصغائر.. إلى أن نصل إلى الكبائر... وضع في عقلك هذه العبارة كي لا أمسك رقبتك من الزمارة:

«لا صغيرة مع إصرار.. ولا كبيرة مع استغفار».. نجعلهما يصران بإحساسهما بالندم.. ولا نجعلهما يستغفران بإحساسهما بالقِدم... وبذلك نتمكن من ضربهما بالقدم.

ثم نُقعِدنَ لهم الصراط المستقيم.. فلا نرهق أنفسنا مع الفاسدين.. وإنما مع الذين هم في طريق الالتزام بادئين.

بعد ذلك نأتيهما من الشمال واليمين.. ومن الخلف والأمام.. وهذه النقطة نوظف فيها من أفسدناه من قبل.. من فلاسفة وحاكمين.. مؤسساتٍ ورجال دين.. فهذا يدَّعي أنه يساري وذاك يميني.. وآخر تأخري.. والثاني من المتقدمين.. فيتبعوا السبل.. فتفرق بهما عن السبيل.. وما هم من خروج إلى سبيل.. فنزيّن لهم فعل قابيل.. بلا شفقة ولا عويل... لاحظ أننا لا نأتيهما من فوق ومن تحت.. فمن نظر إلى فوق لخالقه علم أنه رب.. ومن نظر إلى تحت لنفسه وجد أنه عبد..

ثم نثير الفتن بينهما خاصة في الدين.. حتى يقول بعضهم لبعض:.. يا ابن اللذين.. فما يجدون من معين إلا متفقهاً في الدين.. به نبدأ الوسوسة وإن لم نفلح... نعالجه بالخصخصة.. وإن لم نفلح نلهيه فيما هو مباح عما فيه الفلاح.. وإن لم نفلح فنربكه بين الراجح والمرجوح.. حتى نجعله كاللوح.. وإن لم نفلح.. فذلك من العباد.. ليس لنا عليهم من سلطان.. إلا أن نسلط عليهم الدنيا بالأذى.. يُمنع منه الغذا.. ويُرمى بالرمل والقذى.. فينسى معالجته للفتنة التي نكون قد فتنا بها الناس بلقبنا الخناس.. نلهيهم عن مغزى العبادة

بحب الريادة.. وعن مغزى الأصول بحب الفروع وبالإفراط خوفاً من التفريط.. وبالتفريط خوفاً من الإفراط..

ونزين لهم حب الشهوات.. مرات ومرات.. فيتسمعوا للآهات.. ويتلصصوا في الريحات.. أولها: من النسوان مروراً بالخيل المسوّمة والأنعام وآخرها: ما ذكر في الرابع عشر من آل عمران..

ـ يا بُني تلك هي وصاياي الست.. من أجل هدفنا وأجلها مت.. هل أكرر أم تكون قد فهمت؟!..

ـ أنا لا أفهم كل هذه الأشياء.. فيسِّر لي إياها كالدواء.. كيف نناصبها العداء؟..

ـ أعرف ذلك.. فكل ما قلته لك مجرد ألف باء.. وأنت ما زلت عصفوراً مبللاً في شتاء.. تخوض اختباراً به عناء.. إن رسبته فلا عزاء.. وإن نجحت فهو ابتداء.. خذها كلمة: المسألة كلها مسألة أداء.. مسألة خطيرة سأكملها لك بعد الغذاء.. ولكن أعد علي قبل الغذاء الذي هو مخلوطٌ بالدماء.. كي أصاب بالشفاء.. ما هدفنا من كل هذا العناء.. ؟

ـ الشيطان الصغير برتابة:

ـ هدفنا الثقلان.. الناس والجان.. نخرجهما من الجنان..

ونوسوس لهما في كل زمان.. نغويهما ليقربا الشجرة.. ليتجرعا فاكهتها المرة..

ـ أحسنت. إذاً هيا بنا إلى الغداء...

قاما حتى وصلا إلى مكان غذائهما الذي هو عبارة عن خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل.. وما هو من الزقوم بمثيل.. وما جلس معهم خليل.. وسأكمل لكم فما أنا إلا عابر سبيل.. راغباً في الحق لا أميل.. كارهاً لإبليس ولو تركوني بلا جليس..

obeikandl.com